حوار مع سماحة آية الله السيد محمدحسين فضل الله

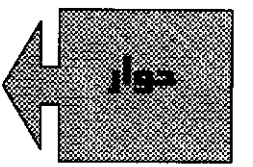

سلامة الواقع الاسلامي

فكرة وثقافة وحركة وسياسة واجتماع(*)

* ما رأيكم بالحوار بين الأديان والمذاهب الإسلامية؟

ـ من الطبيعي مع كلّ التنوعات الفكرية والعملية بين الناس أن يلتقي الإنسان بالآخر، حتى لو كان ذلك على قاعدة التباين، لأنَّ الانفصال الإنساني يُعطل النمو الفكري، ويقف حاجزاً أمام الانفتاح الواقعي على قضايا الحياة. لأنَّ الإنسان لا يستطيع وحده أن يصنع التفاعل مع الاخرين بل لابدَّ من مشاركة الآخرين في تحريك العناصر التي تنتجها تجربته الفكرية والعملية الخاصة كي تلتقي مع عناصر تجربة الآخرين، ومن هنا كان الحوار هو البداية، فنحن نعرف أنَّ اللّه سبحانه وتعالى حاور الملائكة عندما أراد أن يخلق آدم؛ كرمز لخلافته في الأرض بالمعنى الحركي، الذي يعمر الأرض ويصنع فيها الكثير مما تحتاجه الحياة، فقد أبلغهم الله أنّه جاعلٌ في الأرض خليفة، وربَّما سألوه عن الخليفة وماهي نتيجة الخلافة في الواقع العملي، وربَّما ذكر لهم تعالى ذلك وهو ماقد تختزنه الآية، ولم تصرح به وإن صرّح به السياق، فتساءلوا ضمن هذا الحوار الرباني الملائكي، كيف ولماذا هذا الخليفة الذي سمعنا منك أنّه يسفك

---

* - اجرى الحوار الاستاذ مرادي.

الدماء، فإذا كانت مهمته التسبيح والتقديس وعرفنا أنّ هذا الخليفة عنصرٌ حيويٌ قد لا يملكونه في عملية التفاعل والنتاج، ولذلك أراد الله لآدم أن يتحدى الملائكة في أول موقف فقال: «يا آدم أنبئهم بأسمائهم» بعد أن علّمه الأسماء فأجابوا «لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا».

وهكذا رأينا أنّ الحوار انطلق ربانيا مع الملائكة، كما مع إبليس الذي رفض السجود لآدم وعبّر عن عنصريته، ثمّ ذكر الله... له بطرده من رحمته فطلب إليه مهلة لينفس عن عقدته، والحكمة من ذلك أن يعيش الإنسان صراع الخير والشر وهكذا كان، ونفهم من هذا الحوار في بداية الكون والخلق المتصل بالإنسان إن في حوار الله مع الملائكة أو في حوار آدم معهم أو في حوار الله مع إبليس حول قضية الإنسان أنّ الحوار في البداية جاء لإزالة الغموض، مما يعني أنّ دور الحوار في البداية هو توضيح الفكرة وتبسيطها وإبعاد الفكرة عن كلّ علامات الاستفهام التي تغرقها في الضباب، ومن الطبيعي أنّ الحوار بعد أن انطلق الإنسان ليمارس تجربة مسؤوليته عن الكون، أخذ ينفتح على مهمة جديدة، وهي مهمة الصراع بين فكرة وفكرة جديدة وبين خط وخط، وهذا ما تمثّل في حوار قابيل وهابيل القصير الذي كان يقوم على أساس عقدة قابيل من هابيل؛ لأن الله تقبّل قربان هابيل ولم يتقبّل قربان قابيل، من هنا دار الحوار بينهما، ولكن قابيل لم يعش مسؤوليته، وكان ردّ فعله كردّ فعل كثير من الناس الذين لا يعيشون مسؤولية الحوار بأن يقتلوا من يؤمن به، وبدأ الحوار فصلاً جديداً – كما ألمحنا بأن أصبح وسيلة من وسائل تبادل وجهات النظر أولاً ثمّ ملاحقة وجهة النظر المخالفة لازاحتها الباطل. وهكذا رأينا أنّ الحوار يمثل الوسيلة الجديدة لبلورة الأفكار في خط الصراع الفكري، لتكون النتيجة غلبة الفكر على أساس مايحمله الحوار من تقديم حجة هنا وأخرى هناك.

وعلى ضوء هذا، نقول: إن الحوار يحمل معنى الانفتاح الإنساني؛ لأنّ محاورة الآخر تعني التفكير معه، والخروج من دائرة التفكير الذاتية التي تحمل عناصر شخصيته دون أن تعتني بعناصر شخصية الآخر، التي قد تختلف معه في طبيعتها وخصوصيتها، لذلك أن يفكر الإنسان مع غيره بصوت مسموع يعني الحوار الذي هو عملية تفكير مشترك، قد يكون هدفه إيضاح الفكرة وتوسعتها، وقد يكون هدفه تأصيل الفكرة، الأمر الذي يعني أنّ التقدم وتأصيل الفكر الإنساني يفرض أن يحاور الإنسان الإنسان يلتقي به أو فيما يختلف به الآخر في نقاط اللقاء والخلاف، وإذا عرفنا أنّ الحضارات جاءت نتيجة حوارات إنسانية طويلة، استطاعت أن تصنع تصوراً شاملاً عن الإنسان والكون والحياة خصائصاً وحاجات، فمن الطبيعي أن تكن الحضارة القائمة على نتائج ذاك الحوار بحاجة إلى الانفتاح على حضارة أخرى، كانت نتيجة حوار في جانب آخر هذا هو شرط التقاء الحضارات في القضايا المشتركة وشرط التخاطب بينها فيما تختلف فيه. لذا فإنّ حوار الحضارات قد يحمل بعد الصراع إذا كان مسألة مواجهة فكر لفكر، لأنّ الصراع الفكري قد يتمثل في حوار موضوعي عقلاني يضع فيه كلّ فريق سلاحه الثقافي في مواجهة الفريق الآخر، وعلى ضوء هذا قد يلتقي حوار الحضارات بالصراع فيما بينها، ولكنّ من أطلقوا مصطلح صراع الحضارات لم ينظروا إلى الجانب الثقافي، ولكن إلى الجانب الواقعي العملي عندما تحاول حضارة ما أن تكون بديلة عن حضارة أخرى، كما حاول أن يفعل بعض من أطلق عليها صراع الحضارات لينذر الحضارة الغربية بخطر الحضارة الإسلامية عليها، بلحاظ ماتملكه تلك الحضارة من قوة. ومايمكن أن تنتجه من قوة في المستقبل، فنحن مع حوار الحضارات عندما يكون المناخ حضاري، يحاول فيه كلّ فريق محادثة الفريق الآخر لاكتشاف الحقيقة الضائعة بينهم، والتي لابُدّ أن تطرح كحقيقة ضائعة ضمن الحوار. أمّا إذا كان الحوار قائماً على قوة حضارة تحاول مصادرة

الحضارة الاخرى فعند ذلك لا يكون عمليا وواقعيا، بل يكون حالة صراع تماماً كما نستوحي ذلك من قوله تعالى: (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم) فهناك ظالمون ممن تختلف معهم في الفكر يريدون فرض أنفسهم وفكرهم وحضارتهم عليك ليصادروا حضارتك وفكرك، وهناك ممن يبحثون عن الحقيقة في خلافهم معك. فعليك مجادلة الآخرين بالتي هي أحسن، والتعامل معهم بالوسائل التي تدفع الظلم على طريقة (من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم).

ومن الطبيعي، أنَّ الأديان تمثل خطاً حضارياً إنسانياً ينطلق من الإيمان بوحدة الله وتعاليم رسله، ومن التجربة الإنسانية في فهم هذا الوحي وهذه التعاليم على مستوى الوعي والتطبيق، ونحن عندما نعرف أنَّ هذه الأديان انطلقت من رحم واحد لأنَّ الدين عند الله هو الإسلام، ولأنَّ كلَّ رسول يأتي مصدقاً لما بين يديه كما أنبأنا سبحانه لنا بذلك في تشريعه للمسلمين ما وصى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى كي يتوحد الناس في الخط العام للدين. لذا عندما نفهم أنَّ الأديان تنطلق من قاعدة واحدة هي قاعدة الوحي الإلهي، وتتحرّك في مسار إقامة العدل على قاعدة الاستقامة في خط الله، وأنه لكلّ دين خصوصية في التشريع تقوم على خصوصية المرحلة التي عاشها، ولكنَّ الدين في النتيجة واحدٌ، عندما نضع التفاصيل في دوائرها الخاصة.

وأنا أعتقد أنَّ الأديان محكومة للدخول في حوار في جانبيها، لا سيما إذا كانت تنطلق من الإيمان بالله الواحد، ومن الرغبة في طاعته وفي رضاه، أمّا بالنسبة إلى المذاهب فإننا نعتبر أنَّ مسألة الحوار بين المسلمين هي من المسائل الحيوية المتصلة بسلامة الواقع الإسلامي فكرة وثقافة وحركة وسياسة واجتماعاً، لأنَّ المشاكل التي أحاطت بالمسلمين إنما أدّت إلى نتائج سلبية جراء هذا الانفصال بين مسلم ومسلم لاسيما أنَّ الانفصال بينهم وصل إلى حدّ أن يكفر مسلم مسلما آخر

فيخرجه عن الإسلام، لهذا نعتقد أنَّ علينا العمل على إقامة الحوار بين المذاهب الإسلامية على صورة النهج القرآني في حوار الأديان الأخرى من أهل الكتاب، عندما أرادنا أن ندعو أهل الكتاب إلى كلمة سواء (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) أو قوله: (وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم فإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون) فعلينا أن ننطلق من مواقع اللقاء وهي تصل إلى أكثر من ثمانين بالمائة فيما بين المسلمين كي نقف على مواقع الخلاف، حول ما قاله الله سبحانه وما قاله الرسول وكيف قاله وفي أيَ مدى تحرَك هذا القول لننفتح بذلك على قول الله سبحانه وتعالى: (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول) إننا نعتقد أنَ سلامة الاتجاه الديني أمام الاتجاه المادي وسلامة الاتجاه الإسلامي أمام الاتجاه المستكبر تتوقف على أن يعيش أهل الأديان وأهل المذاهب الإسلامية الحوار الموضوعي العقلاني الذي لا ينطلق من عقدة ضدَ الآخر، ولكن من الروح المنفتحة على إنسانيته وعلى ما يختزنه من عناصر الدين التي وإن اختلفت مع العناصر الموجودة لدينا لكنها تقوم بالعمق الإيماني بالله من قاعدة واحدة.

* هل الحوار هو أفضل مايمكن فعله لتحقيق تعايش الإسلام مع الأديان الأخرى ؟

ـ من الطبيعي أن يخلق الحوار أساساً للتفاهم بين فرقي الدينين، ونحن نتصور أننا إذا استطعنا الوصول إلى التفاهم المتبادل بأن يفهم واحدنا الآخر، فإنَ ذلك يمكن أن يطرد الكثير من عناصر الخوف، التي يعززها جهل أحدنا بالآخر ، حيث يدفع الخوف إلى اتخاذ مواقف وقائية نتيجة أوهامه التي يعيشها من الآخر. ولعلنا نستوحي ذلك من الكلمة المأثورة المروية عن الرسول(ص): «لو تكاشفتم لما تدافنتم» وهكذا يسلّط الحوار النور على المنطقة الخفية فيضيئها، فتختفي المشكلة، لذلك نعتقد أنَ الحوار هو الذي يؤدي إلى التفاهم، وعندما لا

تكون هناك رغبة في التفاهم يصبح الوقوف على الكلمة السواء التي يعترف بها هذا وذاك في الخط العام بعيدا عن التفاصيل هو السبيل الذي يحقق التعايش بين الأديان والمذاهب على قاعدة دراسة المصلحة المشتركة.

* هناك أطروحة تقول بالإسلام بلا مذاهب هل هذه الأطروحة نوع من السلفية؟ أم هي رجوع إلى الإسلام المحمدي الذي قال به الإمام الخميني؟

- أنا لا أفهم إسلاماً بلا مذاهب قبل الدخول في حوار علمي موضوعي عقلاني فيما هو الإسلام في خطوطه العامة والتفصيلية، فإذا لم نستطع الوصول إلى صورة للإسلام محددة كيف نتحدث عن إسلام بلا مذاهب؟ فهناك اختلاف في وجهات النظر الفقهية وهناك خطوط مختلفة في المنهج والأسلوب يملك فيها هذا الفريق أو ذاك من وجهات النظر خاصة فماذا نختار؟ إنّ مثل هذا الطرح لا معنى له، لأنّه ليس واقعياً فأن تطرح اسلاماً بلا مذاهب يستدعي أن تحدد هذا الإسلام، لذلك نحن نريد إسلاماً بلا مذاهب من خلال الحوار الذي ينتهي إلى نتيجة حاسمة، وهو لقاء الجميع على صورة واحدة للإسلام، في خطوطه العامة والتفصيلية، وأمر كهذا ليس واقعياً في الظروف الثقافية أو الأوضاع النفسية الحاضرة، لذلك نطرح، في هذا المجال، أن يلتقي المسلمون على القاعدة المشتركة فيما بينهم في مواجهة القواعد المادية الأخرى التي تتحرّك في خط الكفر، وأن يتحاوروا دائماً فيما يختلفون فيه كي يردوه إلى الله والرسول، فلعلّهم يصلون في نهاية المطاف إلى إسلام واحد قد نطلق عليه الإسلام الأصيل، وأنا لا أحبذ نسبة الإسلام إلى محمّد (ص) لأنّ المسيحيين يحاولون فعل ذلك لتأكيد بشرية الإسلام ونحن نقول أنّ محمّداً (ص) هو نبي الإسلام وهو قائده والداعي إليه وهو القمة الإسلامية الكبرى، ولكنّ الإسلام هو دين الله (إذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لربّ العالمين) وليس محمدياً بالمعنى الذاتي لمحمّد ولكنّه إسلام لله وليس في ذلك انتقاصٌ لدور النبيّ (ص) في الإسلام، لذلك أنا لا أوافق على القول بأنّ

المسلمين هم محمّديون كما يقول بعض المسيحيين في هذا المجال، إلاّ إذا أريد من كلمة الإسلام المحمّدي الأصيل، الإسلام الذي انطلق من خلال النبيّ (ص) في وجدانه وكلماته، مما يعطي الصورة المشرقة لفكر الإسلام في جانب النظرية والتطبيق.

* برأيكم هل لابدّ من قراءة جديدة للنصوص القرآنية والروائية حول الأديان الأخرى وما سلبيات هذه القراءة؟

ـ أعتقد أنّه من الضروري دائماً، قراءة النصوص القرآنية والنصوص النبوية الثابتة بطريقة جديدة من قبل كلّ جيل يعمل على اكتشاف الحقيقة الإسلامية على أساس ثقافي، لا من جهة عقدة الجدة، ولكن على المعطيات الفكرية، فمن قرأوا القرآن قراءة فكرية ممن تقدمونا قرأوه من خلال ثقافتهم وخصوصياتهم ومن خلال العناصر الذاتية فيما يتحرّك في قضية استنباط الكتاب، وما إلى ذلك، وقد يكون من يأتي لمن بعدهم تجربة ثقافية أخرى وتتوفر له عناصر جديدة في منهج القراءة والاستنباط، لذلك أعتقد أنّه علينا قراءة القرآن بطريقة جديدة، مع التأكيد على ضرورة معرفة ماقرأه سابقاً، لكي تقوم المقارنة، أنا أعتقد أنّه لا قداسة لأيّ فكر اجتهادي لا يملك عصمة، وعلينا أن ننزع القداسة من كلّ الخطوط الفكرية التي حاولت أن تجتهد في فهم القرآن والسنة، أو في استنتاج بعض الأفكار منهما، لأنّ الاحترام شيء والتقديس شيء آخر، فإنّ تقديس القديم يُغلق باب التفكير، بينما يحملك الاحترام على انتقاد ذلك الفكر ومن خلال ذلك يكون الاحترام.

أنا لا أرى أية سلبية لإعادة النظر في قراءة القرآن سواء فيما يتصل بحديث عن الأديان السابقة، أو فيما يتصل بكلّ المناهج والمفاهيم القرآنية، التي وضعتها الآيات. ولكن من الطبيعي أن تكون القراءة موضوعية، وأن لا تكون منطلقة من عقدة رفض القديم، وعقدة الانفتاح على الجديد، أيا كان الجديد، وأيا كان

القديم. إنَّ الحقيقة واحدة وليس لها زمن تتأثر فيه، ولكنَّ حركة الفكر في اكتشاف الحقيقة هي التي قد تختلف بين زمان وآخر عبر طبيعة العناصر التي نستكملها أوالوسائل التي نستعملها لذلك.

* وفي مجال دراسة التاريخ، هل ترون ضرورة أعادة دراسته وبطريقة جديدة؟

ـ أنا لا أدعي نهجاً غير النهج الذي يسير عليه العلماء في دراسة التأريخ من جانبين:

أولاً: من جانب السند الذي يوثق التأريخ لنعرف ماذا حدث.

ثانياً: مضمون التأريخ من خلال الطبيعة الموضوعية فيما يتصل به من قرائن وظروف وأوضاع ، وفي طبيعة الذين يدرسونه. إنَّ التأريخ لا يُقرأ في الممكن والمستحيل وإنّما يدرس في الواقع واللاواقع، لذلك كنت أحاول دراسة واقعية الحدث التأريخي من خلال الظروف الموضوعية المحيطة به، لأنَّ الإنسان في كلّ زمان ومكان يتحرّك ضمن الظروف الموضوعية النفسية والخارجية التي تحيط به، ومشكلة كثير من النّاس أنّهم صنعوا للتاريخ مهمة استنزاف المأساة أو تعظيم الشخصيات التي يُراد حشد مفردات التعظيم لها، وكان المهم بالنسبة لهم إطلاق التعظيم للشخص دون الالتفات إلى واقعية ذلك، إن من حيث التوثيق أو من حيث انسجامه مع طبيعة الظروف الموضوعية الموجودة. لذلك أعتقد أنَّ التأريخ علمٌ، ولا بُدَّ لهذا العلم أن يقوم على إثبات السند في أنَّ هذه الواقعة حدثت أم لا، ومن حيث المضمون هل أنَّ هذه الواقعة تنسجم مع طبيعة الواقع الذي كانت تتحرّك فيه، وهذا المنهج برأيي سار عليه القدامى والمحدثون في مناقشة السند، وفي إثبات صدور النص من صاحبه، وفي تحليل المضمون، وهل هو مخالفٌ للعقل أو موافقٌ له؟ وهل هو موافقٌ لطبيعة الواقع والقرآن أو مخالفٌ له؟ وقد كتبت دراسة منذ مايقرب من أربعين سنة في مجلة الأضواء في النجف حول

الدراسات الإسلامية من حيث السند والمتن، وذكرت أنه لا يكفي صحة السند لنأخذ بالمتن بل لابُدَّ من مقارنة المتن بظروفه وعلانيته والتقائه مع الحقيقة الإسلامية، كما أراد لنا أهل البيت(ع) أن نفعل في أن لا نأخذ بما خالف القرآن والسنة.

* كيف تقومون هذه التجربة؟

ـ إنَّني أعتقد أنَّها تجربة ناجحة لأنَّها أثارت جدلاً حول الموضوع بقطع النظر عن ما إذا كانت أساليب هذا الجدل سلبية أو إيجابية، وإنَّني أتصور أنَّ الكثير من الأفكار التحليلية والعملية في قراءة التأريخ أو الواقع لابُدَّ أن تثير الكثير من الجدل سواء صدر ذاك الجدل عن الغوغائيين الذين يعملون على عنصر الإثارة والانفعال بعيداً عن الأسلوب العلمي، أوعن المثقفين الذين يواجهون الفكر الآخر بطريقة موضوعية عقلانية. وأعتقد أنَّ هذه التجارب استطاعت إثارة الكثير من الجدل والنقاش والسلبيات التي دلّت على أنَّ المجتمع لايزال يعيش في حالة تخلّف فكري وعصبية عمياء، إلى جانب وجود من يعيشون الانفتاح الفكري والموضوعية في أجوائهم وربَّما أساء البعض إليّ في كلماتهم غير المسؤولة والممتلئة بالجهل والحقد، ولكن ما أطرحه ليس بدعاً من الفكر الذي يختلف الناس في تقويمه.

* ماهي أفضل الطرق لتبادل الأفكار بين علماء الشيعة لتحقيق رقيّ الثقافة الشيعية؟ وماهي الحواجز؟

ـ أن تكون لنا أخلاقية العلم فيما نستعمله من وسائل المناقشة العلمية، وأن نبتعد عن التعصب للذات فيما نطلقه ونرتئيه وما إلى ذلك، وأن تكون لنا التقوى التي تدفعنا إلى التثبت مما قلناه وما قاله الآخرون. وأعتقد أنَّ من علمائنا الأقدمين والمحدثين الذين عاشوا مسؤولية العلم وتقوى الفكر كثيرا منهم رجعوا إلى رأي غيرهم عندما اكتشفوا خطأ رأيهم، الذي وصلوا إليه من

خلال تجربتهم الذاتية، إنَّ شرط الحوار المنتج الهادف الوحيد هو انطلاقه من قاعدة علم وتقوى ومسؤولية.

* بالنسبة إلى الغلو ما هي طبيعته وماهي حدوده؟

ـ أنا أعتقد أنَّ الغلو يتمثل في إعطاء المخلوق أيّ من صفات الخالق بالمعنى الغيبي فهناك حديث يقول: «تخلقوا بأخلاق الله» أن نكون الرحماء والأقوياء والعلماء ولكن عندما نُعطي أيّ مخلوق صفة من صفات الله بالمعنى الغيبي للصفة بحيث نخرجه من قدرة المخلوق ليتمثل قدرة الخالق في ذاته نقع في الغلو...